الأخلاق

وتناسخ الشخصيات

في عالم الحيوان ظاهرة يدعوها علماء الأحياء ظاهرة الانسلاخ . ولنضرب لك مثلاً بدودة القز . فإن هذه الدودة تخرج من بيضة صغيرة كحبة البرسيم بيضاء اللون ، فتكون أشبه بخيط أبيض يدب دبيباً . فإذا اشتدت كبر حجمها وزادت سرعة تنقلها وتجاوز نهمها كل تصور ، فاذا أدركها دور الشرنقة (أو الفيلجة) نقصت قدرتها على الحركة ، وانقلب لونها من البياض إلى الاصفرار ، وقلت شهوتها إلى الطعام ، وجنحت إلى غصن أو زاوية في مكان أو عُصَيَّة ، وأفرزت من جوفها لُعَاباً إذا جَفَّ صار خيطاً حريريًّا ، ومضت تلف جسمها بذلك الخيط المتصل المشبع بمادة غروية القوام ، ليكون اذا جف كرة صلبة بعض الصلابة . فاذا انتهت من بناء هذه الفيلجة (الشرنقة) أصابها سبات ، فيجف قوامها ويتحجر ، حتى انك إذا هززت الفيلجة في يدك ، خُيِّلَ اليك أن في جوفها مدُرَةً لها في جدار الفيلجة صوت أشبه بذلك الذي تحدثه كرة صلبة صغيرة ، عند ارتطامها بجسم صلب

إن الدودة ما تزال حية ، ولكنها لا ترزق . فانها في طورها السباتي هذا يتغذى بعضها ببعض ، وتتزود مما كان بها من الرطوبات ، ولكنها في الوقت ذاته تكون ماضية في التخلق ، إذ تمضي في سبيل الانحراف عن صورتها الاصلية لتأخذ صورة جديدة — هي صورة الفراش . هي إذ ذاك خلقٌ آخر لا أثر للدودة فيه ، كما كانت من قبل دودة لا أثر للفراش فيها . حكمة بالغة في قوة الخلق والتصوير ، تقتصد بها الطبيعة زمناً وجهداً ، وتحفظ بذلك صورة من صور الحياة بدورة محكمة من دورات التناسخ ، فاذا تخلق الفراش ثقب جدار الفيلجة وخرج من جوفها حيواناً تام الخلق كامل الاستعداد للتناسل ، فاذا تم التضراب بين الذكور والإناث منها ، نبذت الطبيعة الذكور فماتوا لانهم أتموا في الحياة واجبهم ، وخدموا الطبيعة فيما سَخَّرتهم له ، واذا وضع الاناث البيض ، حفظن بذلك مستقبل الحياة ممثلاً في تلك الصورة ، نبذتهن الطبيعة أيضاً فمتن في هدوء مستسلمات للقضاء

عانيات القدر ، منحدرات الى حيث انحدر قبلهن آلاف وملايين من الاجيال سبقتهن إلى تلك المرواة ، مهواة اللانهاية والأبد .

هذه الصورة الرائعة التي ترسمها الطبيعة كل يوم على لوحتها الخالدة ، صورة بريئة من كل ما تتخيل من صور العنف أو الشدة أو الجهد، تلك التي تلحظها في حياة الحيوانات العليا ، حيث الألم سبيل البقاء ، والشقاء طريق الاحتفاظ بالنوع . فيلاد جيل جديد من حيوان ضرب في نظام الطبيعة بسهم وارتفع الى صورها العليا ، يقتضي ألماً عند الولادة وألماً في التنشئة والحصول على الرزق ، وألماً في المرض ، وآلاماً مبرحة عند مفارقة الحياة . أما في تلك الدودة الحقيرة في صورتها ، العظيمة الفذة في حقيقتها ، فيلاد جيل جديد لا يقتضي إلا أن توضع البذرة ، وهي حمل تتخلص منه الأنثى ملتذة بالتخلص منه ، ولا ألم في التنشئة ، فان الطبيعة تتولى الصغار برحمتها ، ولا جهد في الحصول على الرزق ، فالرزق مكفول في جنبات تلك الأم العظمى ، ولا خوف من المرض لأن الحياة قصيرة ، والانتقال منها بلا تباريح من الألم ، بل ان موت الدودة عبارة عن انسلاخ من صورة الى صورة ، وموت الفراش انحلال طبيعي أشبه بانحلال البلورات في الماء ، وهو في الواقع تراخ يصيب الهيكل الحي ، وكلما اشتد خاض لهب الشعلة شعلة الحياة ، فاذا بلغ ذلك التراخي آخر درجاته ، انطفأت الشعلة ، كأنها قنديل هبت عليه النسمات .

* * *

لهذه الحالة العجيبة مثيلاتها في عالم الخلق الأعلى ، ونقصد بالخلق الأعلى خلق الانسان المتمدين الذي تبث في نفسه جذوة من جذوات الحياة لا يعرفها عالم الحياة الأدنى . وإذا قلنا إن لهذه الحال مثيلات في عالم الانسان، فلا نقصد حالات الانسلاخ العضوي الذي يصيب الدودة فتصير فراشاً ، وإنما هو انسلاخ من نوع آخر . انسلاخ يصيب الشخصية يقتضي مجموعة من الظروف والشهوات والانفعالات التي ظهرت آثارها في الانسان ، ومضت تحتكم في ظواهره ، وفي بعض الأحيان في أهم ظواهره ، باعتباره انساناً له مفهوم خاص بعيد عن مفهوم غيره من صور الحياة .

ولا ريبة في أن أهم مظهر من مظاهر الانسان هو خلقه وصفاته الأدبية العليا التي قضت من ناحيتها على صلته الوثيقة بالحيوانية ، وجعلته في منطق الطبيعة مفرزة برأسها ، تكاد تنفصل انفصالاً تاماً عن بقية مقولاتها .

من رأي العلامة « دروين » ان الأشياء التي يمتاز بها الانسان على بقية الحيوان كثيرة

ومتعددة . غير أنها أشياء يمكن بالبحث الاحيائي أن يرجعها المتأمل إلى أصول لها في صور الحياة الدنيا ، فيكون الاختلاف الملحوظ بينها باعتبارها أشياء انسانية أو باعتبارها أشياء حيوانية، إنما هو اختلاف من حيث الكم ، لا من حيث الكيف . ولقد استطاع العلامة «دروين» أن يستقرىء من صفات حيوانية، بدايات صفات انسانية عليا ، ردها إلى النشوء وجعل مرجعها تأثيرات طبيعية كالبيئة والوراثة وغير ذلك . على انه على الرغم من ذلك وقف عاجزاً عن تعليل نشوء بضعة صفات انسانية ، وتعذر عليه أن يجد لها بدايات ترجع اليها في عالم الحيوان . من هذه الأشياء حس الموسيقى وحس الجمال وحس الضمير وغيرها من الحسوس الأدبية ، التي جعلت من الانسان تلك المقولة المتفردة بذاتها في منطق الطبيعة ، مقولة لا يشاركها من عالم الحياة شيء في بعض صفاتها التالية .

إذا خرجنا من هذا البحث الاحيائي ، ومضينا في بحث نتناول فيه بعض الظواهر الأخلاقية وتطورها المؤقت بحسب الظروف المحيطة بالفرد ، استطعنا أن نستدل منها على أن العلامة « دروين » إن عجز عن رد بعض الصفات العليا في الانسان إلى بدايات حيوانية ، فان

اقرأ وافهم

يقول رسكن : لا أعجب لما يقاسي الناس من الآلام والحرمان ، وإنما أعجب لما يفوتهم من الفوائد .

ولاشك في أن الانسان لا يفوته من شيء تتعذر استطاعته ، لان فواته فوات لذة حقيقية، من القراءة بحذق وفهم . ولقد دلت الاحصاءات الدقيقة على أن كثيراً من الشيوخ والشباب تفوتهم هذه اللذة العليا ، وان الذي يصرفون انتباههم في قراءته ، أغلبه من الاشياء ذوات اللذة العابرة التي لا بقاء لها في الذهن ، ولا أثر لها في التثقيف إلا قليلا ، وفي جهات العالم تفيد الانسان في حياته حكمة يرجوها أو تجربة يتعظ بها .

كان من المؤمنين بأن قراءة الفهم لذة تفوق كثيراً من اللذات ، طالب علم من بقرية أقيم في ناديها مرقص حافل في ليلة مرح ، فاقتحم المرقص وأخذ يتلو من كتاب « دون كيشوت » سطراً بعد سطر بصوت عال ، وينصب على القراءة بشرح المعنى المستفاد مما قرأ .

ولم يرقه أول الامر فتى أو فتاة ، تركا حلقة الرقص في خجل ، ولكن محاضرته انتهت بزمرة عديدة ضمت جميع المراهقين والمراهقات من فتيان القرية وفتياتها .

الفيلسوف المتأمل أو الباحث السيكولوجي ، قد يقع على طرف من تلك البدايات إذا هو نظر فيما يصيب الانسان من تناسخ أخلاقي ، إذ تتعاقب عليه صور مختلفة من شخصيات تلابسه ، ولكل شخصية حالة تنتجها ، وصورة تؤول اليها .

والحالات التي تحدث تعاقب تلك الشخصيات قسمان ، قسم ذاتيّ ، وقسم موضوعي ، ونقصد بالذاتي ما يصدر عن النفس مباشرةً ، فهي أشياء طبيعية فطرية ، وبالموضوعي ما يصدر عن ظروف تحيط بالفرد فتؤثر في نفسه تأثيراً يختلف باختلاف الاستعداد الخلقي ، فهي أشياء اصطناعية مفتعلة . ومثلنا على الحالات الذاتيــة الحزن والفرح والخوف والانفعال والتشهّي وغيرها ، تجمُّعها هذه أشياء تصدر عن النفس بأفعال انعكاسية لا قِبَل للارادة بالتحكم فيها ومثلنا على الحالات الموضوعية ما يصطنع الفرد من ظواهر ، وما يتخذ من أساليب ، تضيف إلى شخصيته الصحيحة أشياء تنكرها ، توصلاً الى إرضاء شهوات رُبما تقوم في نفسه ، وقضاء لمآرب دنيوية ، كالتشامخ والتكبّر والترفع عن الناس والتنابذ بالألقاب وتحليط القيم الأخلاقية ابتغاء التمويه على مثالياتها حتى تكون الصفات الفاضلة ، فيروج في سوق الدنيا تكبر المتكبر وتشامخ المتشامخ ، وما إلى ذلك من الصفات التي اصطلح الأخلاقيون على تسميتها رذائل الخُلُق .

***

وفي الحيوان من ذلك بدايات . ولكنها ترتد جميعاً إلى انفعالات تفيد الحيّ في حالات حياته . فإذا انتفخ الهر أو كشر عن أنيابه الأسد أو هرّ الكلب ، فتلك صفات تلابس الحيوان اتقاء لظروف تحيط به . فلما سيطر العقل على الأشياء الانسانية نهضت هذه البدايات الحيوانية ، فتطورت مستخفية في الخلق الانساني ثم ظهرت في صورة مصطنعة يلجأ اليها الفرد إذا أراد أن يحاكي الهر إذا انتفخ ، والأسد إذا كشّر عن نابه ، والكلب إذا هرّ . وبذلك بدا في أفق الخلق البشري طابع تلك البدايات مصورة في صورة خُلُق اجتماعي مصطنع ، فيحاول أصحاب الخلق الخسيس الضعيف إحياءها في أنفسهم ، ليحصلوا بها على نفس الأثر الذي أرادت الطبيعة أن يكون لتلك الانفعالات الحيوانية التي صورناها . ذلك بأن طبيعة التطور ، لما رأت أن تلك الصفات لم يصبح للانسان المتمدين بها من حاجة ، مضت تكبتها وتقمعها ، ماضية بها في سبيل الاضمحلال ، شأنها في ذلك كشأنها مع كثير من الصفات العضوية التي مضت بها في سبيل الزوال ، بزوال الحاجة إلى الوظيفة التي كانت تؤديها . فالعودة الى استخدام مثل هذه البدايات كالعودة إلى تحريك عضلات الأذن في الانسان مثلاً ،

تكون مصطنعة مفتعلة بعيدة عن حاجات الجسم وأشياء الحياة الضرورية .

تلك أشياء تدلنا على أن الانسان الذي تنسخ شخصيته ، فتزول صورتها الاولى لتلابسه صورة ثانية ، بمقتضى ما يحيط به من ظروف المجتمع ، انما هو في ذلك كالمهرّج الذي يلبس من الثياب ما يلائم الدور الذي يحاول أن يلعبه أمام الناس ، فتتوالى عليه الصُّور والتي يصطنعها بنفسه ، وهو في جميعها كذّاب مُضَلّل أفّاك .

وإنك ان تأملت في نفسية الطفل الصغير رأيت أن الطفل قد يلجأ إلى ما يلجأ اليه الحيوان بعض الأحيان من ضروب التنكّر الخلقي ، فقد ينتفخ كما ينتفخ الهر ويكشر عن نابه كما يكشر الأسد مثلاً . ولكن الطفل إذا أتى ضرباً من هذا التنكّر فانما يأتيه من طبع أصيل . ذلك بأنه في طفولته يكون أكثر احتياجاً الى استخدام هذه الأساليب الحيوانية منه إذا كبر وشبّ واكتمل عقله ، واصطلت مواهبه الانسانية، وأصبح أكثر معرفة بطبيعة الظروف التي تحيط به . وهذه الظاهرة وندعوها ظاهرة « التنكر الخلقي » تبدأ بالضعف والاستخفاء كلما تحوّل الطفل إلى طور الفتوة والشباب ، وتكن وتكاد تزول إذا بلغ الفرد سن الرجولة العاقلة .

غير أن مقتضى الظروف المدنية في المجتمع الحديث قد تقلب تلك الظاهرة قلباً كلياً ، فتخرجها من عالمها الطبيعي إلى عالم مصطنع مفتعل ، فتنقلب من « تنكّر خلقي » دعت إليه الطبيعة في الحيوان وورثته الإنسان في بداياته الأولى لحاجات حيوية صرفة ، إلى ما ندعوه « تناسخ الشخصيات » ، وهذا التناسخ ان استمدّ أصلاً من صفة التنكّر الطبيعية، فانه في حياة الانسان العاقل المتمدين ليس إلا صفة أثرية يدعو الى استخدامها ضعف أخلاقي تأصل في كثير من الناس ، إذ تجد أن الفرد الواحد منهم قد انتسخت شخصيته مرات عديدة في مدى حياته ، بحسب الظروف التي تحيط به . وهؤلاء هم أضعف الناس خلقاً وأرذلهم طبعاً وأدناهم نفساً . أولئك هم الارقاء ، الذين يخيل اليهم أنهم أحرار ، أولئك هم الديدان التي تتناسخ فتصير آناً فراشاً وأخرى دابة أو حشرة . هم أولئك الذين ضعفت عقولهم عن تقييم حقيقة الحياة الانسانية ، فارتدوا الى حياة الحيوان . أولئك هم الذين لا يعرفون لحياة الناس قيمة الا اذا عصرتهم ظروف الحياة ، فاعترت منهم نزعة ذلك التصنع ؛ الذي هو من كواذب الأخلاق .

راقصة الفالس

لما تنازعها الهوى واستحكم الوجد الدفين
قامت لتعرب عن جوًى وبجفنها دمعٌ سخين
فاستعجمت عن شرح شكواها وقد غلب الحنين
كم موقفٍ لتحسّن اللسا ن به وأعربت العيون

عيٌّ البيانُ ولم يحرْ لما تكلمت الفنون
وأصاخ مشتاق إلى الأوتار فانهلّت شؤون
فكأنما الألحان في الأسماع من شجوٍ أنين
شرقت بأدمعها العيو نُ وناح من وجدٍ حزين

لحنٌ أثار بها الهوى والوجد مبعثه لحون
تمشي ويثنيها الدلا ل كما تمايلت الغصون
حتى توسطت الجمو ع وساد في الجو السكون
فأتت من الابداع ما أغضت لروعته الجفون

نطقت بما راح الصبا عليه والسحر المبين
فاذا الكلام اشارةٌ عن غامض المعنى تبين
صورٌ يخيل أنها الأحلام تمليها الظنون
فارتابت العينان مما أعربت ، وهو اليقين

للجسم رعشةُ مدنف لما تساوره المنون
أو هـزة الداء الدفيـن اذا تملكت الشجون
والخصر من هيف يخا ل به سقام وهو لين
للفن ألوان كما للحسن في الدنيا فنون

وتدور كالمصروع طا وده من الماضي جنون
طوراً تسير الى الاما م كما تطلعت السفين
وتصد كالمذعور لما أرعشت منه اليمين
وبعينها للناظرين لتنهل الرؤيا عيون

دمشق — عدنان مردم بك